المذهَب الرّوَمنسِى الحديث

فى منتصف القرن الثامن عشر ، وعلى التحديد فى سنة ١٧٥٠ ، ظهرت بوادر ثورة عاتية على المذهب الكلاسى الحديث . . بل المذهب الكلاسى بحذافيره . . وكان ذلك حينما ظهرت رسالة جان جاك روسو التى طالب فيها بالرجوع إلى حضن الطبيعة الدافىء ، والثورة على كل ما يقيد الروح الإنسانية بالقيود والتقاليد . . ثم عاد روسو إلى تثبيت دعائم ثورته فى « اعترافاته » ذلك الكتاب الذى دخل كل بيت وأصبح رفيق كل شاب .

على أن المسرح الفرنسى ظل جامدًا يترنح فى بقايا قيود المذهب الكلاسى الحديث حتى أتاح له الكاتبين ألكسندر ديماس (الأب) وألفرد دى فينى فى أواخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر . . إذ شرع كل منهما يكتب بعض المسرحيات ذات الصبغة الرومنسية . . تلك الصبغة التى أهاجت عليهما سخط النقاد المحافظين . . أو قل : النقاد الرجعيين .

وكان ظهور هذين الكاتبين إيذانًا بما أخذت تضيق به قلوب الفرنسيين ، بل قلوب الأوربيين جميعًا ، من قيود الكلاسية الحديثة وسخافاتها . . كما كان ظهورهما إيذانا أيضا بهبوب ريح جديدة من ريح المذهب الرومنسى على المسرح الفرنسى ، وذلك بعد أن قام شليجل الألمانى يبشر بالرومنسية الإنجليزية ، وبالأحرى رومنسية شيكسبير ، وكأنه بذلك قد اكتشف شيكسبير لأوربا كلها . . حتى لإنجلترا نفسها ! . . .

ومن ثمة اشتدت ريح المذهب الرومنسى . . أو الرومنسية الحديثة . . التى آتت أكلها فى عالم الشعر والأدب والقصة ، وحفل تاريخها فى هذه الميادين بأسمى آيات العاطفة الإنسانية ، وأبدع ما خطته يراعة فى يد بشر .

أما فى المسرح ، فقد تعثرت الرومنسية الحديثة التى لا تكاد تخرج فى وسائلها وأهدافها عن الرومنسية القديمة . . ولعل الشاعر الفرنسى الطائر الذكر فكتور هيجو هو الشخص الذى دفع هذه الرومنسية الحديثة دفعتها القوية فى المسرح ، حتى كادت أن تتركز فيه ، ولا سيما عندما ظهرت مأساته « هرنانى » فى الخامس والعشرين من فبراير سنة ١٨٣٠ فكانت نصراً حاسماً للرومنسية الحديثة على الكلاسية الحديثة بعد ضجة هائلة نشبت بين أنصار كل من المذهبين . . ثم توالت مسرحيات هيجو حتى مأساته القوية الثانية روى بلا Ruy Blas فكانت تأكيدًا للمذهب الناشىء .

ثم أصدر هيجو مأساته كروموبل (التى لم تر أضواء المسرح ! . .) وصدرها بفصل مسهب عن المذهب الرومنسى كانت له ضجة شديدة فى فرنسا وفى غيرها من الدول الأوربية . . وقد شرح هيجو فى ذلك الفصل عناصر الرومنسية الحديثة بما لا يخرج عما صدرنا فصلنا هذا .

وقد كانت للرومنسية الحديثة فوراتها فى ألمانيا كذلك ، وقد وجدت هذه الفورة أثرها فى الشاعر كايست Kleist زعيم المذهب فى المسرح هنالا ، كما وجدت صداها فى أعمال لسنج وشلر وجوتة ممن لخصنا بعض مسرحياتهم من قبل ، وما لمسنا فى أعمالهم تلك من تذبذب بين الكلاسية الحديثة والمذهب الرومنسى الحديث . .

على أن الرومنسية الحديثة فى ألمانيا وجدت لها ميدانا مسرحيا آخر « هو ميدان الأوبرا العظيمة » هذا الميدان الذى حفل بمؤلفات جمعت بين السحر والإعجاز الموسيقى لكل من فبر Weber ومارشنر Marschner وموسيقى شوبير Schubert ثم روبير شومان ومن ظهر بعدهم فيما يسمى « حركة ما بعد الرومانسية » ، ومن أعظم أقطابها فجنر الخالد R.Wagner .

أما فى إنجلترا فقد استيقظ الإنجليز على غناء أوربا بأسرها باسم شيكسبير . . وقد حاول كثيرون من شعرائها الذين تفوقوا فى ميادين الشعر والقصص الرومنسى أن يدلوا بدلوهم فى النظر للمسرح . . لكنها كانت تجارب خائبة أو شبه خائبة . . وممن قاموا ببعض تلك التجارب بيرون وشللى وغيرهما . . ولعل الرومنسية الحديثة كانت أقوى فى

أوربا الوسطى (ولا سيما بولنده والنمسا) منها فى إنجلترا نفسها ، مما لا مكان هنا لبسط القول فيه .

نقد الرومنسية الحديثة فى المسرح :

لا يكاد القارىء لإحدى المآسى الرومنسية أو المتفرج على شىء منها حين يفرغ من القراءة أو من المشاهدة حتى يلاحظ السطحية الواضحة فى تصوير عواطف أبطالها ، والمبالغة المضحكة فى تصوير الدوافع التى تهيج عواطف هذه الشخصيات . . إن مآسى الرومنسية القديمة ، وبالأحرى مآسى عصر إليزابث ، كمآسى شيكسبير مثلاً ، أو مآسى كاللديرون الأسبانى ، تمتاز أول ما تمتاز بالعمق الشديد ، والأصالة فى عرض ما تجيش به الفرد من لواعج وعواطف وآلام . . ثم هى تمتاز أيضاً بما يسودها من هذا الجو الذى يغمره جلال البطولة والشعور بعوامل الشرف والرفعة والبعد عن عوامل التكلف الذى هو ألد أعداء المسرحية الجيدة ؛ بل شر أدوائها جميعاً . إننا فى كثير من مآسى شيكسبير نشعر دائماً بالرأفة والرعب . . كما نشعر بأن الصراع ينشب لدواع معقولة ، وليس لأسباب متكلفة قد تثير الضحك على الشخصيات وعلى المؤلف على السواء . ففى مكبث مثلاً . . نشعر كيف ود مكبث لو لم يقتل الملك الذى أحبه وجعله كبير قواده ، وخرج بنفسه للقائه كى يهنئه بانتصاره ، وذهب إلى منزله ليحل على مكبث ضيفاً . . فكيف يقتله بعد هذا كله؟! . . إذن فليأت الدافع من الخارج ، ولأسباب مغرية أشد الإغراء . . إنه يأتى من زوجة مكبث التى تطمع فى أن تكون ملكة ، وأن تلبس التاج الرفيع الشأن إلى جانب زوجها الملك ! . . وهى لهذا تهدم كل الحواجز التى تعترض سبيلها إلى تحقيق هذا الحلم . . وتكون صداقة مكبث للملك ومحبته إياه أحد تلك الحواجز . . ولهذا يتردد المسكين فى الدخول على الملك النائم ليقتله . . وهنا تعيره زوجته بالجبن ، وتقترح أن تدخل هى لتقتل الملك ! . . لكن الرغبة الملحة المسعورة فى أن تصبح ملكة تدفعها دفعاً إلى إغراء زوجها الضعيف المتردد بقتل الملك . . وبعد أن يناجى مكبث خنجره يدخل فى خطى متثاقلة ليغمد الخنجر فى صدر مولاه وحبيبه وصديقه ، بيد موهونة وقلب منخوب ! . .

وهذا كله لا تكلف فيه ولا تلفيق . . إنها دوافع عميقة خالية من السطحية ؛ بل هى تكاد تكون دوافع من صميم الواقع .

وهذه سمة غالبة فى المأساة من أولها إلى آخرها . . بل هى سمة تتسم بها جميع مآسى شيكسبير ومآسى كالدرون الأسبانى من أقطاب الرومنسية القديمة . . لكننا إذا قرأنا مأساة مثل : « هرنانى » لفكتور هيجو ، بطل الرومنسية الحديثة ، عجبنا لتفاهة الدوافع التى يتحمل الأبطال بسببها آلامهم ، وعجبنا كذلك لسطحية تلك الآلام التى تقرب أن تكون آلامًا سببها جرح يد البطل بسكين وهو يقشر تفاحة ، وليست آلاما يضطرب بها القلب وتلتعج بها النفس ، ولا تملك العين تلقاءها إلا أن تنزف دمًا لا دموعًا .

ففى هرنانى مثلاً : كيف جاز لفكتور هيجو أن يجعل العم العجوز ابن الستين عاما يحب ابنة أخيه كل هذا الحب ؛ ويهيم بها كل هذا الهيام الذى يؤرق عينيه ويضنى قلبه ، وهى فتاة لم تتجاوز العشرين بعد ؟ . . أى عم هذا الذى يتصبب كل تلك الصبابة ، وبمن ؟ . . بابنة أخيه . . والعم مع هذا ينافس فى حب الفتاة شابًا هو فارس إسبانيا الأول وبطلها المغوار ؟ . .

وأنكى من ذلك وأرذل ، حب الدون كارلوس ، ملك إسبانيا ، والمرشح لعرش إمبراطورية شارلمان ، للفتاة نفسها ! . . والدون كارلوس فى حبه الفتاة ، ومنافسته لهرنانى فى ذلك الحب لا يرعى لتاج الملك أية كرامة . . إنه يحب حب الأوشاب والسفلة ، وهو يقفز من النافذة كما يفعل (العيال ! . .) ليفاجىء الحبيبين فى خلوتهما ! . . فأين جلال البطولة فى هذا الصغار كله ؟ ! . .

وهرنانى يعيش بأمل الثأر لأبيه من قاتله . . لكن قاتل أبيه قد توفى . . ولذلك فهو يطلب هذا الثأر عند ابن القاتل ؟ . . فأى منطق هذا ؟ ! . . ليكن ! . . وتتيح الفرصة لهرنانى كى يقتل كارلوس ـ وهو ابن قاتل هرنانى ـ لكن هرنانى لا يقتله . . لماذا ؟ . . علم ذلك عند هيجو الذى لم يبين لنا السبب ! . . لماذا لم يقتله ، وقد هدده بأنه سوف يلقى القبض عليه وسوف يأمر بشنقه ؟ . . لسنا ندرى أيضًا ! . . ولعل هيجو خشى أن تنتهى المأساة وهى لا تزال فى فصلها الأول ! . .

ويفاجىء العم المتيم ، الحبيبين المتيمين فى قصره وهما يوشكان أن يتبارزا . . ثم يتبين أن أحد الحبيبين هو الملك . . والإمبراطور المنتظر ، فيصدع العم المتيم ويخضع ، ولكن الملك يبسط حمايته على خصمه المحب المتيم الآخر . . لماذا ؟ . . إنها النخوة فى نظر المؤلف ! . .

ويضبط العم المتيم غريمه فى حب ابنة أخيه وهو يملأ بها ذراعيه فلا يقتله ، لكنه يأخذ معه فى حساب طويل حتى يفجأهما الملك الذى يعلم بأن العم يؤوى إليه خصمه وطالب دمه . . وهنا يستشفع البطل . . هرنانى كله . . والذى لم يبدلنا حبنا قط . . يستشفع بمن ؟ . . بالعم المتيم المحترم فيخبئه حتى تنجلى الكربة . . فإذا إنجلت يخبره هرنانى على أن يسلمه نفسه ليقتله بالسم أو بالسلاح متى شاء . . وبعد أن يكون هرنانى قد قتل الملك . .

والعجيب أن يتم هذا العهد . . ولكن متى ؟ . . بعد أن يصبح الملك إمبراطوراً فيبتهج ويصفح عن هرنانى وعن العم . .

(وفى الليلة الداخلة) ـ ومعذرة عن هذا التعبير الظريف ـ يفاجىء العم المتيم العروسين السعيدين ليطلب روح هرنانى ؟! . . ويستسلم هرنانى تلبيةً لداعى الشرف والبر بالعهد ! . .

* * *

وهكذا تسفر المأساة عن سلسلة طويلة غير معقولة من الافتعالات . . التى ليس بينها دافع معقول واحد . . وليس بينها ما يجعلنا نأسى على أى حبيب من هؤلاء المحبين!

ذلك كله بالرغم مما تأخذك به المأساة من شعر هيجو وروعة المناظر وإبداع الممثلين وجمال المواقف . . ولذا فهى لا تزالا من الروايات الناجحة إلى اليوم ! . .

وإليك ملخص هذه المأساة لتستنتج لنفسك منه ما تشاء .

هـرنانى :

دونيا سول فتاة فى ريعان الشباب وفورة العمر ، مات عنها أبوها فكفلها عمها

الدون روى جوميز ، ونشّأها فى بيته . . والظاهر أن جمالها خلب لبه واستحوذ على قلبه فقرر أن يستأثر بها وأن يتزوجها . . وإن يكن عمها (! . .) ولذلك فهو يقيم عليها الحراس الغلاظ الشداد . . إنه أمير قشتاله !

ولكن . . ماذا تجدى الحراسة إذا صبا القلب إلى من يحب ، ومالت النفس شابة إلى الحبيب الشاب ؟ . . لقد كانت الفتاة تهوى هذا الفتى الآفاقى الشجاع المهدر الدم ، هرنانى ، الذى قتل الملك الراحل ، ولن يهدأ له بال حتى يعطى دم والده حقه .

ولكن . . وما أكثر ولكن فى هذه المأساة . . ممن يثأر هرنانى ؟ . . وعند من يطلب دم أبيه ؟ . . إنه هذا الدون كارلوس . . أمير البلاد . . وملك إسبانيا . . والذى أصبح الوارث الوحيد للإمبراطور مكسمليان إمبراطور ألمانيا الذى لم يشع نبأ وفاته فى البلاد بعد .

وأعجب العجب فى مأساة الحب هذه أن الملك ، أو الدون كارلوس ، متيم غراماً بدونياسول هو أيضًا . . وهو يعلم أن غريمه هرنانى فى هواها يتردد عليها كلما أرخى الليل سدوله . . ولذلك فهو يترصده ، ويقص أثره . .

فيا للعشاق الثلاثة المفتونين ! . .

وتكون دونياسول على موعد ضربته للقاء هرنانى فى إحدى غرفات القصر . . وتكون مربيتها العجوز « يوسفه » . . فى انتظار الحبيب . . وتسمع طرقًا خفيفًا فتخف للقائه . . لكنها ترى نفسها أمام شخص متنكر فى بزة الفرسان ، إنه ليس هرنانى . . وهى لذلك تحاول أن تستصرخ وتطلب النجدة . . لكن الفارس يخيرها بين خنجره يذبح به عنقها ، وبين بدرة من المال تنقلها من الفقر إلى الغنى . . فتختار البدرة . .

إن هذا الفارس هو السيد الملك ! . . إنه الدون كارلوس ! . .

ويسمع وقع أقدام فيطلب الملك مخبأ ، فتدسه يوسفه فى مكان ضيق وبىء . .

ثم تدخل دونياسول لموعدها مع هرنانى الذى لا يلبث أن يصل هو أيضًا . . فتلقاه دونياسول كما تلتقى قلوب المحبين . . لكنا نرى هرنانى مضطربًا مهمومًا . . إنه يحسد هذا الشيخ الفانى عم دونياسول وأمير قشتاله ، ومن لو شاء لتزوج نصف جميلات

قشتاله . . إنه يحسده وينقم عليه محاولته الاستئثار بهذا الجمال الذى لم يخلق له ، ولا شأن له به . . ثم هو يشكو حاله لحبيبة القلب ومنيةالنفس . . ويرجوها أن تنسى حبه . . لأنه شريد طريد لا ملجأ له إلا الجبال يلوذ بكهوفها ، والغابات يأوى إلى أحراشها متربصًا متلصصًا ، ينتظر الفرصة التى تمكنه من الثأر لأبيه ، ومعه تلك العصابة الكبيرة التى ورثت هى أيضًا ثارات قديمة عند الملك الراحل ، فجمعت بينها الضغائن ، ووحدت أهدافها الأحقاد .

لكن دونياسول تعرض على هرنانى قلبها وحياتها ، وتعاهده على الفرار معه لتقاسمه عيشه ومآله والإقامة معه حيثما حل ، والذهاب معه أيان ارتحل . . إذ لا حياة لها بدونه ، ولا ملجأ لقلبها إلا إلى قلبه . .

ويسمع الدون كارلوس هذه النجوى من مخبئه فيجن جنونه ، ويغلى دمه ، ويكاد رأسه أن ينفجر ، فيبرز لغريمه ليناقشه الحساب ! . . إنه لا يقول لهرنانى من هو . . ولا يزيد على أنه شريكه فى حب دونياسول ، بل منافسه على قلبها . . ويمتشق الغريمان سيفيهما ، دون أن يعرف هرنانى أنه يبارز الرجل الذى يطلب عنده ثأر أبيه . . نفس الرجل !

ولكنا لا نلبث أن نفاجأ بدخول الغريم الثالث . . الدون روى جوميز . . عم الحبيبة وخطيبها وأمير قشتاله . . جاء ومن ورائه الحراس وحملة المشاعل . .

وهنا تقف المبارزة ، لأن دونياسول ترمى بنفسها بين المتبارزين ، وهنا أيضًا يأخذ العم العاشق فى مناقشة غريميه الحساب ، كيف اقتحما القصر وكيف أباحا لنفسيهما أن يتبارزا هكذا فى دار ليست لهما بدار ؟! . . وهو يوشك أن يأمر أتباعه بإلقاء القبض عليهما لولا أن يكشف له الدون كارلوس عن شخصيته ، وأنه لم يأت إلا ليقص عليه نبأ وفاة الإمبراطور ، وأنه أحق الوارثين بعرش الإمبراطورية ، التى له فى المطالبة به أنداد ومنافسون . .

ويخشع الدون جوميز أمام مولاه الملك ، وينقلب تهديده له ووعيده إياه فيكونان ترحيبًا واعتذاراً ، ثم يعده العون بعد تقليب الأمور على وجوهها . . فإذا سأل جوميز

الملك عن هذا الفارس الآخر زعم له أنه فتى من أتباعه . . وهكذا ينقذ الملك غريمه من ورطته . . لحاجة فى نفسه من حاجات المروءة والشهامة . .

وفى زحمة الوداع يسمع الملك كارلوس دونياسول وهى تعطى هرنانى موعداً يأتيها فيه، وتطلب إليه أن يصفر ثلاثًا إيذاناً بوصوله . . غداً . . فيقول كارلوس فى نفسه وهو ينظر إلى الحبيبين . . غداً !

ثم يخرج الجميع ، ويستأنى هرنانى فى الخروج . . ويقول وقد عرف أن غريمه فى حب دونياسول هو صاحب ثأره أيضاً : « أجل أنا واحد من أتباعك أيها الملك . . وأنا أتبعك حيثما كنت حتى أثأر منك لأبى ! . . » .

* * *

فإذا كان الفصل الثانى رأينا كارلوس فى شيعة من أتباعه وقد أتى لميعاد الغد بين الحبيبين ، وسمعناه يأسف لأنه أفلت هرنانى ، وأفلتت منه الفرصة لقتله والقضاء عليه ليخلو له وجه دونياسول ، وليتخلص من ألد أعدائه الشخصيين المتربصين به ! . .

ويبث رجاله للقبض على هرنانى حينما يجىء فيكون من نصيبهم . . ولتكون دونياسول من نصيبه هو . ثم يتجه نحو شرفتها فيصفر مرتين ، ثم يصفر الثالثة فتبرز إليه من النافذة ، وتنادى « هرنانى . . إنى نازلة ! . . » . فإذا برزت من باب القصر أدركت أن الخطوة ليست خطوة هرنانى . . فتضطرب ، وتحاول الهرب ، إلا أن كارلوس يمسك بها . . ثم يغلو فى التوسل إليها ، راجياً أن تفضل الملك على الشريد الطريد اللص ، وأن تقبل تاج أكبر إمبراطورية فى العالم على أن تسلم نفسها وقلبها لملك الشحاذين . . لكن دونياسول تتوسل إليه أن يرسلها ، وأن يتجه بحبه إلى من هم من سمته وفى درجته . . لكنه يلح ويلحف ويشتد فى إلحاحه وإلحافه ، ويحاول أن ينال منها منالاً فتنتهز فرصة وتستل خنجره الذى إلى جنبه ، وتهدده بأنه إذا خطا نحوها خطوة لقى مصرعه . .

ولكن الملك يهددها بأنه ليس وحده وأن حوله أتباعًا ثلاثة مدججين بالسلاح . . وهنا يسمع من يقول له :

« نسيت تابعًا رابعًا . . هو . . أنا ! » .

أما هذا التابع فلا يكون إلا هرنانى ! . . لقد فاجأ الملك وأمسك به من خلف . . وأنقذ منه دونياسول . . وحاول الملك أن يدعو إليه حراسه الثلاثة فأخبره هرنانى أنهم أسرى رجاله . . وأنه لا منقذ له الآن إلا أن يدافع عن نفسه . . وطلب إليه أن يبارزه . . لكن الملك يأبى ، لأنه لا يبارز سوقة وفرداً عادّياً من رعاياه . . وهنا يكسر هرنانى سيفه . . ويلقى به عند قدمى الملك ، ويقدم إليه معطفه لينقذه من رجاله وليعطيه فرصة الفرار . . ويقبلها الملك وهو يصعر خده متشامخاً ، منذرًا بأنه سوف يلقى القبض عليه ويقضى عليه (!!!) .

فإذا انصرف الملك رأينا الحبيبين فى موقف غرامى وهما يتناجيان نجوى طويلة لا يفيقان منها إلا على أجراس تتجاوب أصداؤها فى جنبات المدينة . . ثم يدخل أحد أتباع هرنانى ليحذره من كبسةجنود الملك ، ويقدم إلى هرنانى سيفه ، وتعرض عليه دونياسول الفرار فيأبى إلا الانضمام إلى رجاله للمضى فى خطته .

ويقبل الحبيبة على جبينها وهى تدعوه زوجها . . ثم يمضى لشأنه .

* * *

ثم يكون الفصل الثالث فنرى الدون روى جوميز واقفاً مع دونياسول يحاول أن يقنعها بأنه يستطيع أن يحب خيرًا مما يحب غريماه الشابان القويان الناضران . . على الرغم من أنه أصبح هيكلاً فانيًا وشيخًا متهالكًا . . وهو يحاول ذلك فى منطق ممل وحجة سقيمة ، ودنياسول ضائقه به ذرعًا ، وترد عليه بعبارات التى توشك أن تولى عن هذه الدنيا . . ومع ذلك فهو يستحثها إلى الذهاب إلى الكنيسة لعقد قرانهما . . ولولا أن يدخل رسول فيقول : إن هرنانى قد قتل وقضى على عصابته ، وإن الملك هو الذى تولى إبادتها بنفسه ! . . فتضطرب دونياسول . . ومع ذلك فجوميز يوصيها بأن تعنى بزينتها لأن هذا هو أسعد يوم فى حياته . . ثم يضيف الرسول أن بالباب قادماً غريباً فيرحب جوميز بلقائه بعد انصراف دنياسول المسكينة التى تلقت النبأ كأنه طعنة خنجر لم تبق ولم تذر . .

ويدخل القادم فى ملابس حاج يريد التوجه إلى سرقسطة لزيارة العذارء البتول ، وبالأحرى كنيستها هناك ، وليرى تمثالها الناصع المتألق ذا الهالة الذهبية من الشعر الجميل . . ولا يكون هذا الحاج إلا العاشق المسكين هرنانى جاء مستخفيًا يتزود بنظرة من منية النفس التى تدخل هى الأخرى بين خدمها وحشمها وقد ازينت لحفلة الزفاف على عمها الكهل الليلة !

ولا يطيق هرنانى أن يسمع الرجل الكهل وهو يخاطب دونيا بأنها زوجته فينزع عنه لباس الحاج وينادى : « من أراد أن يربح ألف جنية ذهباً ثمناً لرأس هرنانى فأنا . . هرنانى ! . . » .

وتكون مفاجأة للجميع ! . . ولا سيما لدونيا التى كانت منذ هنيهة تبكى حبيبها الذى قيل أنه قد قتل ، وتكون مفاجأة للدون جوميز الذى يأبى أن يقتل ضيفه ولو ملك الدنيا كلها ثمنًا لرأسه ، ويخرج الدون لكى يسلح القصر ، فيتقدم هرنانى إلى دونيا ليهنئها بالتاج والزواج فى عبارة باكية دامية . . ويتهمها بنكث العهد وخفر الذمة . . فتهلع دونياسول وتنفى عنها التهمة قائلة : إن ليس فى قلبها إلا هرنانى . . وأنها قد رفضت قبول تاج الدوق عرش الإمبراطورية حين وضعه تحت قدميها . .

ويبكى الحبيبان طويلاً . . ثم يتعانقان . . ثم لا يفيقان إلا على دخول الدون روى جوميز الذى يقف مشدوهًا مفغور الفم ليعاتب ضيفه ، ويقارن له بين ما أولاه من إكرام ومما قابله هو به من هذا السطو على الزوجة الموعودة . . وتحاول دونيا أن تأخذ مسئولية ما حدث على عاتقها . . لكن جوميز يكون ثائرًا فائراً لا يكاد يسمع ولا يكاد يبين . . حتى يدخل أحد الأتباع منذراً بأن الملك . . الملك بشخصه . . قد وصل . . وهو واقف بالباب !

ويضطرب القوم ، ويتقدم هرنانى إلى جوميز ليقول له : إنه أسيره ، فيدفع به جوميز إلى مخبأ . . ثم يتقدم فيكون والملك وجهاً لوجه !

ويأخذ الملك فى تقريع جوميز ويتهمه بالخيانة لأنه يؤوى إليه ألد أعداء الإمبراطورية . . لكن جوميز يدافع عن نفسه ؛ إلا أن الملك يطلب إليه أن يسلمه أسيره

وعدوه . . هرنانى . . ولكن . . كيف يسلمه ضيفه وأسيره وهو من سلالة الأكرمين . . هؤلاء المعلقة صورهم فى رواق القصر ؟ . . هذا لن يكون أبداً . . وينذره الملك بأحد أمرين . . إما الأسير ، وإما هدم القصر بأبراجه الأحد عشر ، ويجيبه الدون : أن أمامه القصر فليقلبه على رأس من يحب ! . .

وهنا يأمر الملك بالقبض على الدون . . فتقدم دونياسول منددة بعمل الملك الذى لايكاد يسمع صوتها حتى يوشك أن يصعق ! . . إنه صوت الحبيبة ومليكة الفؤاد ! إنها تعيره بأن قلبه لم يكن قلب إسبانى ! . .

ويتقدم الملك إلى جوميز فيطلب إليه أن يسلم إما هرنانى ، وإما دونياسول . ويقول له جوميز : إنه ولى الأمر ، فإذا تقدم الملك إلى دونياسول ليذهب بها صرخت وعرضت رأسها إن كان لا بد من رأس هرنانى . . أو رأس عمها . . ثم تتقدم نحو الصندوق الذى به هدايا عرسها فتتناول منه خنجراً . . وكأنها تبغى أمراً ويرى ذلك عمها فيفزع . . ويتقدم نحو مخبأ هرنانى كأنه اعتزم أن يسلمه . ولكنه يعود فيسلم دونياسول . . ولا يسلم هرنانى . . فيفرح الملك ويمضى بصيده الثمين مبتهجاً مسروراً .

فإذا خلا المكان إلا من جوميز ، تقدم الرجل المسكين ففتح المخبأ ، وبرز منه هرنانى الذى يقدم إليه جوميز سيفين ليختار منهما ما شاء ، ولكى يحسم النزال بينهم . . ويدهش هرنانى ، لأن الرجل طاعن فى السن . . ولا قدرة له على منازلة أقوى فارس فى البلاد . . لكن الرجل يصر على منازلته لأنه كان سبباً فى ذهاب الملك بدونياسول .

دونياسول ؟ ! . . وكيف ؟ !

ويتضح أن هرنانى لم يسمع شيئاً مما دار بين جومييز وبين الملك إذ هو المخبأ ، فإذا روى له جوميز ما حدث ، فزع هرنانى ، وذكر للرجل أن الملك يهوى دونياسول بقدر ما يهواها كل منهما . . ويطلب إلى الرجل أن يسلحه ليقفو أثره ، وسوف يعود إليه بعد الفراغ من أمر الملك ليضع رأسه بين يديه ، أو يفعل به ما يريد ! . .

ويطلب إليه جوميز أن يقسم له على الوفاء بهذا العهد ، فيقسم هرنانى ، وتصبح روحه ملكا لجوميز . فيسلحه . . ويمضيان لمهاجمة الملك بعد أن يتصافحا ، وبعد أن يعطيه هرنانى بوقاً ينفخ فيه جوميز فى أى يوم وفى أى ساعة ، فيكون هرنانى بين يديه ! . .

* * *

وفى الفصل الرابع نرانا أمام مقابر مدينة إكس لاشابل الهائلة وكهوفها التى تضم مقبرة شرلمان العظيم . . وقد اجتمع هناك الدون كارلوس وجماعة من معاونيه وراحوا يثرثرون ثرثرة طويلة عما عسى أن يسفر إليه اجتماع الكرادلة المشتغلين بانتخاب الإمبراطور الجديد ، وكارلوس يمنى النفس بأن يكون هو الفائز ، وهو يتحرق إلى ثلاثة أصوات فقط لكى يفوز بعرش الإمبراطورية . . ويكون ميعاد مجىء المؤتمرين عليه قد قرب فيصرف أتباعه إلى مواقعهم ، ثم يدخل هو مقبرة شرلمان ويغلقها على نفسه .

ويصل المتآمرون تباعاً ، ويقول كل منهم كلمة السر قبل أن يؤذن له بالمرور . . حتى إذا اكتمل عددهم ، أخذوا يقترعون فيمن يوكل إليه شرف قتل كارلوس . . وتخرج القرعة على هرنانى فيطير فرحاً ، حتى يأخذ بثأر أبيه . . ولكن دون جوميز يحاول أن يحل محله لينال ذلك الشرف ، بيد أن هرنانى يعتذر ثم يرفض ، وهو يرفض حتى بعد أن يرد عليه جوميز بوقه ، ويحله من عهده .

ويقسم الجميع على الصليب الذى صنعه جوميز من نفسه ومن سيفه ، على أن تكون ضربة القاتل هى ضربتهم جميعاً . .

ثم تسمع أصوات فيحاول المتآمرون الاختفاء . . ولكن أين ؟ . . لقد أحيط بهم جميعاً !

ويبرز دون كارلوس فيأخذ فى تقريع هرنانى وتأنيب دون جوميز . . ثم يأمر بإحضارر دونياسول التى لا تكاد ترى هرنانى حتى توشك أن يغمى عليها . .

وتأتى النجدة ! . .

إن البشير يدخل لينبىء كارلوس بأنه قد أصبح إمبراطوراً ، بعد أن اعتذر فردريك

الحكيم عن عدم قبول المنصب . . وهنا يبتهج كارلوس ، ويرتفع فجأة فوق صغار نفسه ، ويشرع فى توزيع الألقاب ، ويتفضل بالعفو عن المتآمرين ، وأمام بكاء دونياسول واستشفاعاتها يعفو عن هرنانى . . ويمنحه يد دونياسول . . فيأخذها هرنانى ملء ذراعيه . . حتى إذا أفاق من غشية الحب ، منحه كارلوس ـ أو صاحب الجلالة الإمبراطور شارلكان ـ لقب فارس ، ووهبه قلادته الذهبية وعدة دوقيات . . هذا . . ودون جوميز ينظر إلى ذلك كله ويتفجع !

ويصرف الإمبراطور الحاضرين جميعاً ، ويتقدم إلى قبر شارلمان يناجيه ، وليقول له : إنه علّمه كيف يكون عظيمًا . . وكيف يبدأ عهده بالرحمة ! .

* * *

وفى الفصل الخامس تكون فى سرقسطة فى ساحة قصر أرجون ، وقد اجتمع عدد من الدونا الأسبان يثرثرون انتظارًا لمجىء العروسين ، هرنانى ودونياسول . . وهم يعجبون من قصة هذا الغرام المثلث الذى فاز فيه اللص على الملك الإمبراطور وعلى الدون روى جوميز . .

ثم لا يلبثون أن يروا شبحًا قادمًا فيسأله أحدهم إن كان قادمًا من الجحيم بعد أن أفلت من زبانيتها ؟ . . ويقول له الشبح : إنه ليس قادمًا من جهنم لكنه ذاهب إليها ! . . ثم يتوارى الشبح خلف درج القصر .

ثم يصل العروسان فى أبهى حلة ، ومن ورائها جمع كبير فى ثياب تنكرية . .

ويأخذ الموجودون فى دعابات سمجة ، ويتمنى بعضهم لو كان عفريتاً لكى يرى ما يجرى فى غرفة العريس هذه الليلة !

ثم ينتصف الليل فيستأذن المدعوون وينصرفون ، ويخلو الجو للعروسين فيأخذان فى نجويات سعيدة . . وتهتف دونياسول باسم هرنانى فيرجوها ألا تعيد على أذنيه هذا الاسم التعس ، اسم التشرد واللصوصية . . ويضرع إليها ألا تدعوه منذ اليوم إلا باسم الدون يوحنا الأرغونى . . أسعد رجل فى العالم ! . . الرجل الذى نزع عنه لباس البؤس والفقر عند باب هذا القصر ولبس ملابس الدونات الصيد !

ويغرق العروسان فى أحلام ونجويات وغزل . . لا يفيقان منها إلا على صوت بوق . . بعيد يشق سكون الليل كما تشق سكين قلب عاشق !

« إن النمر تحتنا طلب فريسته بزئيره الكريه ! » .

وترتعد فرائص أسعد رجل فى إسبانيا فجأة . . فيقول لعروسه :

« بل سمينى هرنانى . . فالظاهر أن الشقاء لا يزال يطاردنى . . وأنا بهذا الاسم أولى ! . . » .

وتسأله دونياسول : « ماذا ؟ . . » .

فيجيبها : « إنه الشيخ الهرم . . الشيخ الذى يضحك فى الظلام مكشراً عن أنيابه الزرق ! . . » .

ويسألها هرنانى أن تأتيه بصندوقه الذى كان يحمله معه دائماً أيام شقائه ، فتمضى لتحضره له . . ولا يكاد يخلو المكان حول هرنانى حتى يدخل الشيخ ! . . ويقول له الرجل : إن حينه قد حان ، ويجب أن تسير جنازته إلى مصيرها . . وإن نواقيسه تدق منذ ذلك الصباح .

ويعرف هرنانى أنه غريمه الشيخ ، وأنه جاء يستوفى عهده . ويخيره الرجل بين السم ، ونصل الحديد . . فيفزع هرنانى ويتخاذل . . ويرجو الرجل القاسى المتحجر القلب أن يرحم زوجًا وعروسه إلى صباح الغد . . ولكن الرجل لا يرق ولا يلين . . ويحاول هرنانى ألا يبالى بعهده . . فيذكره الرجل بشرف الأسبان . . فيلين هرنانى من جديد . .

ويناوله الرجل قنينة صغيرة من السم . . فيرفعها هرنانى إلى شفتيه المرتجفتين بيديه المرتعشتين . . وهنا . . تدخل دونياسول ، وتعجب لهذا الوجوم الذى يستولى على فتى أحلامها وفارس سعادتها . . وهى لا ترى شبح الرجل العجوز المتوارى فى ظلام الليل .

وتقول : إنها لم تجد الصندوق . . فإذا تنبه هرنانى لوجودها ضاقت به الدنيا أكثر مما ضاقت من قبل . .

ولا يدعها الشبح تقترب منه أكثر . . إنه يكشف قناعه بعد أن يقترب منها . . فإذا هو الدون روى جوميز . . عمها العاشق العجوز الملتاع !

ويقص عليها هرنانى قصة القسم الذى أقسمه لعمها الوحش والعهد الذى عاهده عليه . . أن تكون له زوجة بعد أن يقتل كارلوس !

ولكن دونياسول لا تصدق . . وتحاول أن تثنى الشيخ . . عمها . . عن إصراره وتصميمه على أن ينتزع روح هرنانى من بين جنبيه ولكن الرجل لا يلين . . وتهدد دونياسول بأنها قاتلة نفسها لا محالة . . ولكن الرجل لا يزيد إلا إصراراً .

وتقذف دونياسول بنفسها تحت قدمى عمها باكية مسترحمة . . إلا أن هذا لا يزيده إلا ضراوة ووحشية .

ويطلب الوحش من هرنانى أن يشرب السم ، وأن يبر بعهده ، لينتهى كل شىء . . فيرفع هرنانى السم إلى فمه وهو ينظر إلى عروسه مودعًا . . إلاّ أن عروسه تهجم عليه وتنتزع القنينة من يده . . ثم تشرب هى السم !

فإذا عاتبها هرنانى طمأنته . . لقد تركت له نصف الجرعة القاتلة ! . . ثم تشرع فى مخاطبة عمها لتسأله إن كان قد سعد بما يرى ، ونال ما تمنى ؟ ! . . ويشرب هرنانى ما بقى من السم . . وقد أخذ دونياسول ملء ذراعيه . . وتبدأ الآلام المبرحة . . وتندلع النار فى أحشاء العاشقين ! . . ثم يموتان ! . .

ويحسدهما دون روى جوميز على تلك الموتة السعيدة . . والتى ليس فى الدنيا كلها أسعد منها . . ويأبى الشقى إلا أن يلحق بهما ، فيطعن نفسه ، ويخر إلى جانبهما جثة هامدة! . .

❋ ❋ ❋